بسم الله الرحمن الرحيم

الأديب والتجربة

إذا كان معظم النقاد لم يختلفوا في أن الأدب هو التعبير عن التجربة الحية بأسلوب جميل، فإنهم اختلفوا في مفهوم هذه التجربة وحدودها ومعنى الصدق فيها !.. وتساءلوا: هل تعني واقعية التجربة أن يكون الأديب من أبطالها، أو واحداً من شهودها ؟ أم يُجزئ الأديب أن يتخيل التجربة، ويتمثل ما فيها من مشاعر عن طريق استحياء تجارب مشابهة مرت به، أو عن طريق استبطان تلك التجربة، ثم أن يحاول نقل ذلك إلى الناس، حتى يخيل إليهم أنه بطل تلك التجربة حقاً، أو أنه واحد من شهودها على مسرح الحياة. فإذا وفق الأديب إلى مثل ذلك توافر فيما يبدعه الصدق الفني، وبذلك تتنوع تجارب الأديب بين تجارب محسوسة ينقلها، أو تجارب متخيلة يبدعها.

على أن فريقاً من النقاد والأدباء الذين لم يدركوا سمو رسالة الأديب، ولم يفرقوا بين حدود الفن الرفيع ودعوى الفن الزائف الوضيع.. مضوا ينادون بأن يطلق للأديب والفنان عامة عنان الغرائز والشهوات، وأن يُخلّى بينه وبين هواه، ليمارس أنواع التجارب في الحياة دونما وازع من دين أو خلق قويم.. وحجتهم في ذلك أنه يجوز للفنان ما لا يجوز لسواه، مادام هدفه إثراء فنه بالتجارب المتنوعة ونقل معاناته بصدق وواقعية.

وقد ساق الأديب الفرنسي جورج ديهاميل في كتابه «دفاع عن الأدب» مثالاً رائعاً نرى فيه خير رد على مزاعم تلك الفئة الخاطئة، إذ عرض قصة لبيير لويس بعنوان «الرجل الأرجواني» وخلاصة هذه القصة أن فناناً إغريقياً أراد أن يرسم لوحة لبرومثيوس سارق النار في الميثولوجيا اليونانية، وهو الذي تزعم أساطيرهم أنه تسلق جبال الأولمب، فسرق جذوة من النار ليأتي بها إلى البشر الذين لم يكونوا يعرفونها من قبل، فإذا بالآلهة المزعومة تسلط عليه بعد صلبه نسرين ضاريين ينهشان صدره، حتى إذا أشرف على الموت ردت إليه الحياة ليعذب من جديد.

ولم يكن الفنان الإغريقي رأى قط مشهداً مثل ذلك العذاب الذي لم يعذبه أحد من قبل، ولا استطاع أن يتصوره في مخيلته، فما كان منه إلا أن أمر بعبد من عبيده أن يصلب، وأن يحمى له ميلان من الحديد، ثم يكوى بهما صدره.. وكان الفنان يتملى هذا المشهد الفظيع حتى يرسم لوحة سارق النار.

ويتسامع أهل المدينة بما اقترفه الفنان، فتثور ثائرتهم لتلك الجريمة النكراء، ويُهرعون إليه ليقتصوا منه، حتى إذا أحاطت جموعهم بقصره أطل عليهم من الشرفة وهو يحمل لوحته الرائعة التي كان قد أتمها لتوه، فأخذت الجماهير بروعة الفن وتراجعت عما كانت تريد، وغفرت للفنان ما اقترفه في سبيل الفن أو في سبيل التجربة الفنية.

ويعلق جورج ديهاميل عضو الأكاديمية الفرنسية على تلك القصة بقوله : «ما أفقرها عبقرية تلك التي تحتاج أن ترى الألم بعينيها حتى تستطيع تصويره بيديها».

رئيس التحرير